مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة للُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة عِلميَّة دَوْريَّة مُحكَّمة

العدد
11

يناير - مارس
2024م

الاتصال بين العربية واللغات الأخرى
مقاربةٌ تاريخية حول المعجمية والاقتراض اللغوي

Contact Between Arabic and Other Languages: a Historical Approach in Lexicography and Linguistic Borrowing

د. محمد بن ظافر الحازمي

أستاذ مشارك بقسم اللغويات بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

البريد الإلكتروني: m.alhazmi@iu.edu.sa

مستخلص البحث

تهتم هذه الورقة العلمية بقضية الاتصال اللغوي بين العربية وغيرها من أكثر من منظور. وبما أن قضايا الاتصال اللغوي يراد لها التعميم والشمول إلا أن المطلع على خصائص الاتصال بين اللغات ربما وجد ما لا يتفق مع ذلك التعميم. لا يمكن التوصل إلى هذه النتيجة إلا بعد التوصيف الدقيق لمسألة الاتصال بين اللغات. في هذه الورقة أقوم بعرض توصيف تحليلي للاتصال بين العربية وغيرها من اللغات في مسارين: أحدهما فوق لغوي، والآخر لغوي. فالمسار الفوق لغوي يتمثل في الجغرافي شرقاً وغرباً، فالشرق اتصلت في فضائه العربية بعدة لغات مجاورة، اخترت منها للدراسة الفارسية والتركية، والغرب اتصلت في فضائه العربية باللغات الرومانسية. ويتفرع عن المسار الجغرافي مسارٌ تاريخيٌ في الناحيتين. أما المسار اللغوي فيتمثل في حالة اللغات التي اتصلت بها العربية من حيث التدوين (تأليف المعاجم) والمعْيرَة (تقعيد قواعد اللغة). تهدف الدراسة إلى إظهار قضية اتصال العربية بمزيد من التفصيل وذلك عبر محاولة فهم طبيعة وتاريخ اتصال العربية ببعض اللغات. ثم المقارنة بين الاتصال اللغوي في كل ناحية وكيف تشكَّل ذلك الاتصال، وما العوامل اللغوية والفوق لغوية التي أثرت فيه. من مخرجات هذه الدراسة: أولاً، الوقوف على أشكال متنوعة من الاتصال، ثانياً، أن الاتصال باللغات القديمة التي لها حظ من التدوين كان محصوراً في جانب الاقتراض اللغوي. ثالثاً، إسقاط التعميم الذي يرى في العسكرة والسيف أهم وسائل غلبة اللغات بعضها على بعض خاصة في الحالة العربية مع لغات الشعوب المسلمة.

الكلمات المفتاحية: اتصال اللغات، العربية الأندلسية، الفارسية، التركية.

Abstract

This paper focuses on linguistic contact between Arabic and other languages from several perspectives. Since linguistic contact is usually intended to be generalized and inclusive, a deeper investigation might come up with something inconsistent with the abovementioned generalization. This outcome can be reached via an exact characterization of contact between languages. In this paper, I present an analytical description of the contact between Arabic and other languages according to two factors: the first is above linguistic, and the second is linguistic. The above linguistic factor concerns itself with the geographical landscape in East and West. In the East, Arabic contacted several neighbouring languages, from which I chose to study Persian and Turkish. In the West, Arabic was contacted with Romance languages. This paper will shed light on historical paths in both East and West. The linguistic factor can be summarized in the situation of languages, whether they were documented and standardized or not. The study aims to demonstrate Arabic contact in more detail by understanding the nature and history of this contact with specific languages. Then, the comparison between linguistic contact in both destinations, how that contact was shaped, and what linguistic and above linguistic factors influenced it. The outputs of this study are, firstly, to see a variety of forms of contact, and secondly, the contact with old languages lacking in documentation and standardization was limited to the linguistic borrowing aspect. Third, busting the generalization that considers militarization and war to be the essential means of prevailing in one another's languages, particularly in the situation of contact between Arabic and the languages of Muslim peoples.

Keywords: Language Contact, Andalusian Arabic, Persian, Turkish.

تمهيد

اهتم الشرق والغرب منذ أمد بعيد بالعربية وتاريخها بوصفها قيمة حضارية لدى العرب. ودُرس تاريخها وتطورها عبر الأزمان، وواقعها المعاصر وتنوعها اللهجي. ليس هذا فحسب، بل أُنشئت معاهدُ وأقسامٌ علمية ومسارات في الجامعات لدراسة اللغة العربية، وتقام بين الفينة والأخرى المؤتمرات التي تدعو المختصين للمشاركة بالجديد في دراسة العربية. هذا الاهتمام يبين لنا الحرص على استكشاف الآخر –المتمثل بالعربية– والبحث في اتصالها مع غيرها من اللغات. ولم يقتصر اتصال العربية بغيرها على مجرد الاتصال اللغوي فحسب، بل إن العربية شكلت قاطرة حملت الثقافة والدين الإسلامي إلى رقعةٍ جغرافية واسعة.

وقد لمعت أسماء بارزة من المستعربين تناولوا شيئاً من قضايا الاتصال اللغوي ومنهم: الإسباني فيدريكو كورينتي بمؤلفاته ومنها A Dictionary of Andalusi Arabic (قاموس العربية الأندلسية)، والأمريكي جوناثان أوينز في كتابه A Linguistic History of Arabic (في التاريخ اللغوي للعربية)، والهولندي كيس فريستيخ في كتابه Pidginization and Creolization: the case of Arabic (الترطين والتحول للكريولية في الحالة العربية) وغيرهم. وبمجرد النظر في أعمال هؤلاء اللغويين المعاصرين نجد الجهد الكبير الذي خصصوه لدراسة اللغة العربية وتناول قضاياها، ومن ذلك اتصالها باللغات الأخرى. وهناك عدد من الأعمال التي قدمها المستعربون درست تاريخ العربية عموماً وقد ضم ذلك التاريخ شيئاً من قضايا الاتصال بين العربية وغيرها، وأضرب المثال بكتاب *العربية* ليوهان فك Johann Fück. إلا أن مثل هذه الأعمال وغيرها تتحدث عن مسألة الاتصال بشكل عامٍ ولا تقدم تفسيرات تقوم على مقارنة أكثر من حالة، في جوانب محددة.

وأود في هذه الورقة دراسة جوانب معينة حول اتصال العربية باللغات الأخرى.

وتنطلق الدراسة من عاملين أساسيين في تجلية هذا التواصل بين العربية واللغات الأخرى. فالأول فوق لغوي وهو جغرافي تاريخي وتحته: ناحيتان: الشرقية التي اتصلت فيها العربية بلغتين أساسيتين وهما الفارسية والتركية، والناحية الأخرى هي الغربية التي اتصلت فيها العربية باللغات الرومانسية. والثاني لغوي ويتمثل في حالة اللغات التي اتصلت بها العربية من حيث التدوين والمعيرة. والمقصود بتدوين اللغة تأليفُ المعاجم التي تجمع كلمات اللغة حسب نظام معين، وحظ اللغات من التدوين متفاوت، أما المعيرة فتتمثل في الدرس اللغوي الذي يضع المعايير النحوية والصرفية للغة.

وهناك أمران من المهم استحضارهما عند محاولة فهم الاتصال بين العربية وغيرها وهما: أولاً، الديموغرافيا حيث العدد والكثرة، وذلك أن التركيبة السكانية تغيرت في تلك البلدان، الأمر الذي جعل التحول اللغوي في بداية الفتوحات في صالح العربية، وبعد قرون عدة حصلت بعض التحولات اللغوية التي كانت في صالح اللغات الأخرى. ثانياً، مصطلح القوة والغلبة للناطقين بالعربية ليس حكراً على حالة العَسكَرة والحرب كما يتحدث الكثير من المحللين لمشهد الصراعات اللغوية، كما عند اللساني البريطاني David Crystal ديفيد كريستال.(١) فغلبة المجموعة الناطقة بالعربية ليس بالضرورة أن تكون عسكرية. بل إن قوة العربية في بعض البلدان كانت نابعة من قوة الإيمان بالدين الجديد الذي خالط مشاعر السكان الأصليين حتى أحبوا اللغة التي جاءت مع ذلك الدين وقدموها على لغاتهم. وقد أشار إلى ذلك المستشرق ألفرد وولنر، إذ يرى أن الفاتحين العرب لم يعتمدوا على القوة العسكرية فقط لنشر لغتهم وربما لو فعلوا ذلك لم يكن للعربية هذا الانتشار الكبير. ولكن أولئك الفاتحين اعتمدوا على المشاعر الدينية الجياشة التي لامست قلوب أولئك الذين اتبعوا الدين الجديد

(1) Crystal, "English as Global Language". (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 9.

وآمنوا به. ويضيف أيضا بأن القرآن الكريم وهو المصدر الأول في التشريع الإسلامي لم يتعارض مع الحقائق الأساسية التي وردت في الكتب السابقة والتي اتبعها كثير من سكان الأمصار المفتوحة قبل إسلامهم، وهذا ما شجعهم على الدخول في هذا الدين الذي لا يتعارض مع القضايا الأساسية في أديانهم السماوية.(١)

والهدف الرئيس الذي تروم هذه الدراسة إنجازه هو التوغل في فهم عملية الاتصال بين العربية وغيرها من اللغات، وهذا التوغل لعاملين أحدهما فوق لغوي ويتمثل في الجغرافيا المتمثلة في المكان والتاريخ المتمثل في الزمن. أما الثاني فهو لغوي ويتمثل في حالة اللغات التي اتصلت بها العربية من حيث التدوين والمعيرة. ومن هنا فسيكون هناك اختلاف في تناول مسألة الاتصال بين اللغات شرقاً وغرباً. فاللغات الشرقية سأكرز على الاتصال فيما بينها وبين العربية في جانب بناء المعجم وذلك نتيجة لأمرين: أحدهما غياب الأعمال المعجمية عن تلك اللغات، والثاني حالة التأثر الشديدة التي وقعت تلك اللغات تحت وطأتها نتيجة إسلام الشعوب الناطقة بتلك اللغات. أما اللغات الغربية المتمثلة في الرومانسية فسيتم التركيز في اتصالها على الظروف التاريخية والثقافية التي أدت إلى الاقتراض اللغوي مع إيراد بعض الأمثلة على الكلمات المقترضة من العربية؛ لأن هذه المسألة وهي الاقتراض هي الأبرز في الاتصال اللغوي بين العربية واللغات الغربية التي كان لها حظ من التدوين والتقعيد. أما حصر واستقصاء الكلمات التي دخلت اللغات الغربية فليس ضمن أهداف هذا البحث.

ثم إن النواحي العسكرية التي يُعتقد أنها السبب الرئيس في انتشار اللغات لا تصلح لفهم انتشار العربية؛ لأن هذا العامل العسكري يتسبب في حرق مراحل الاتصال باتجاه تحول الناطقين باللغات الأخرى إلى العربية مباشرة، وهذا ما لم يحدث في اللغات المدروسة شرقاً وغرباً: الفارسية، والتركية واللغات الرومانسية. وهذا ما

(1) Woolner, "Language in the History and Politics". (London: Oxford University Press, 1938), 49.

تشترك فيه اللغات الثلاث وهو مسألة التعايش مع العربية ثم الصمود، وتفترق في أن التركية والفارسية كانتا تتلمسان طريق التدوين والمعيرة في حين أن الرومانسيات في الغرب سلكنَ طريق اللاتينية الأم في النواحي المعجمية والدرس اللغوي عموماً.

تتألف هذه الورقة من تمهيد، وستة فصول: الأول يتناول اتصال العربية باللغات الأخرى من الناحية التاريخية، والثاني يتناول بواكير اتصال المعجمية العربية باللغات الأخرى، والثالث يتحدث عن تأثير المعجمية العربية في معاجم اللغات الشرقية، والرابع حول العربية واللغات الرومانسية في شبه الجزيرة الإيبيرية، أما الفصل الخامس فيتناول العربية الأندلسية إحدى مخرجات الاتصال بين العربية واللغات الأخرى. وفي الفصل السادس أتناول التباين بين اتصال العربية باللغات الشرقية واللغات الغربية، يتلو ذلك خاتمةٌ موجزةٌ.

اتصال العربية باللغات الأخرى من الناحية التاريخية

في الشرق

اتصلت العربية بلغات عدة على الحدود الجغرافية المتاخمة لجزيرة العرب. وتجدر الإشارة إلى أن التواصل كان مرتبطاً بالتوزيع الديموغرافي القديم في الشرق الأدنى. فالعربية لم تنعزل منذ عصور تكوينها عن الاتصال بأخواتها الساميات والأسر اللغوية القديمة من غير الساميات. وكان ذلك الاتصال في إطار التجمعات السكانية المتمايزة من الناحيتين الثقافية والعرقية. وقد عاشت تلك المجموعات في أربع مناطق وهي: بلاد النيل، بلاد الرافدين، والهلال الخصيب ومنطقة شبه الجزيرة العربية والصحاري المحاذية لها شمالاً. ولا بد في هذا السياق من الإشارة إلى قضية الصِلات البحرية قديماً التي شكلت عصب التواصل بين العربية وغيرها. فالجزيرة العربية التي تُمثِّل في جميع حدودها وأطرافها الناطقين بالعربية تحفها البحار من ثلاث جهات. فبحر الخليج شرقاً وبحر العرب في الساحل الجنوبي والبحر الأحمر من جهة الغرب، ومَن وراء هذه البحار كلهم من الناطقين بغير العربية. كالفارسية التي يتكلم بها سكان السواحل المطلة على الخليج، والقبطية التي يتكلم بها سكان مصر الذين يقطنون المنطقة المتاخمة لشمال البحر الأحمر. في حين أن جنوب البحر الأحمر كان مطلاً على جنوب السودان والقرن الإفريقي واللغات السائدة هناك مزيجٌ من اللغات الكوشية الإفريقية وبعض اللغات السامية التي كان القرن الإفريقي موطناً لها ومركزها مملكة أكسوم.(١)

ولا ننس في هذا السياق أن اتصال العربية باللغات الأخرى في موسم الحج لم يبدأ إلا بعد أن دخل العجم في الإسلام أفواجاً، الأمر الذي ارتبط كثيراً عند علماء

(١) العجمي، " أبعاد العربية، دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقتها ببقية اللغات السامية". (الرياض: مطابع الناشر العربي، ١٤١٥)، ٣١.

العربية بمسألة اللحن. وسوف أستبعد قضية اتصال العربية بغيرها في موسم الحج لأسباب عدة: (أ) أن هذا الاتصال يأتي في أيام قليلة، (ب) أن هذا الاتصال يحدث للعربية في عقر دارها وتظل هي اللغة الغالبة أو لغة السكان الأصليين، ومن هنا فإن تأثر العربية أو تأثيرها قد يكون في أضعف المستويات. في المقابل فإن رحلة التجار العرب سواء كانت على ظهور الإبل في القوافل أو على ظهور السفن تتعرض فيها العربية للاتصال بشكل أكبر. أما فيما يتعلق بالرحلة البحرية لغرض الغزو فتتجلى فيها حالة الاتصال اللغوي بشكل أكبر لا سيما إذا انتصر الفاتحون واستقروا في الأوطان الجديدة ثم واصلوا التوسع، وهم بلا شك مسلمون وأغلبهم ناطقون بالعربية.

والحقيقة أن الاتصال اللغوي الذي كان له تأثير ووقع أقوى سواء على العربية أو على اللغات الأخرى هو الذي تم عن طريق الصلات البحرية، التي مكنت الناطقين بالعربية لأن يلتقوا بالكثير من العجم فيما وراء البحار القريبة أو البعيدة. وقد اعتمدوا في تلك الرحلات على السفن الشراعية. وتُحدِّثنا الوثائق التاريخية أن السفن أبحرت من شحرِ عمان وبقية موانئ الخليج منذ القدم سالكةً الطريق الموازي لساحل شبه الجزيرة العربية. وقد اعتمدوا في رحلتهم تلك على الرياح المصاحبة للتيارات البحرية إلى الجنوب الشرقي الذي تصل فيه تلك الرحلات إلى الهند وما جاورها. والعودة من هذه الرحلة كانت في غاية الصعوبة حيث إن الرياح تكون معاكسة ولا يتغير اتجاهها إلا في أوقات قليلة من السنة.(١)

وكانت البحرين وعمان وحضرموت والبلدات الساحلية شرق شبه الجزيرة العربية يحكمها الساسانيون إبان ظهور الإسلام. ويعود التوثيق التاريخي للتجارة من تلكم المناطق إلى القرن الإسلامي الأول حيث انطلقت التجارة من شرق الجزيرة

(1) Agius, "Classical Ships of Islam, from Mesopotamia to the Indian Ocean". (London: Brill 2007): 37.

العربية عبر العراق والخليج وصولاً إلى الهند. وكان يُقام سوق تجاري في منطقة عمان قبل الإسلام واستمر ذلك السوق حتى بعد الإسلام ويحضره كثير من العجم، ويشير ابن حبيب معلقاً على هذا الحدث بقوله:

كان الفارسيون يعبرون البحر ويحضرون إليه (إلى السوق) مع بضائعهم.(٢)

والحقيقة أن مثل هذه الأسواق المغمورة في تاريخ دراسة اللغة العربية تكشف جانباً آخر تلتقي فيه العربية مع اللغات الأخرى للشعوب المجاورة. وقد حدث ذلك في أقدم العصور وقبل موجة انتشار اللحن التي جعلت اللغويين يُدشِّنون حملة الفصاحة التي تقوم على ثلاثية الزمان، المكان والعِرْق، التي حددت معاير الفصاحة واستبعدت ما سواها. ولا شك أن الدارس لتاريخ النحو العربي لابد أن يقف على الدور الذي لعبته الأسواق العربية كسوق عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقام في أوقات متقاربة من السنة. وإضافة إلى ما في تلك الأسواق من البضائع والبيع والشراء أقيمت فيها منتديات للأدب تبارى فيها الشعراء والفصحاء.

في المقابل فإن الأسواق التي كانت في المناطق المتاخمة للعجم على أطراف جزيرة العرب في المدن الساحلية لم يقتصر دورها على التجارة فقط، بل شكَّلت نقاط تلاقٍ بين العربية واللغات الأخرى تأثرت بها العربية وأثرت فيها. ومن الطبيعي أن تَنتُج عن هذه الأسواق أخلاط لغوية متنوعة يحتاج إليها كل من يضطر إلى التعامل مع من لا تجمعه بهم لغة محددة وقد حفِلت كتب الأدب والرحلات بنماذج لتلك الأخلاط اللغوية، وسأورد هنا مثالاً قدمه الجاحظ في قصة بائع الخيول حينما قال: "وقد فهمنا معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس، حين قال له الحَجَّاج أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ قال: «شريكاننا في هوازها، وشريكاننا في مداينها. وكما تجيء

(٢) أبو جعفر بن حبيب، المحبّر "رواية أبي سعيد بن حسين السكري". دائرة المعارف العثمانية، (بيروت: المكتب التجاري، ١٩٤٢): ٢٦٥.

نكون». قال الحجاج: ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها."(١)

وكما يشير علم اللغة الاجتماعي فإن هذه هي البيئة الخصبة لظهور اللغات المبسطة أو الرطانات.(٢) هذا الدور الناتج عن الاتصال كان خارج حدود عمل اللغويين؛ لأنه معاكس لما يعملون عليه من العمل على معيرة اللغة وتقعيد قواعدها. إلا أن أدب الرحلات قدَّم لنا بعض اللوحات الاجتماعية اللغوية التي تشير إلى أحوال التواصل بين العربية وغيرها إضافةً إلى ما ينتج عن ذلك الاتصال على المستوى اللغوي.

في الغرب

ما سبق ذكره يندرج تحت الاتصال اللغوي لغرض التجارة وهذا بلا شك في حالة السلم وهناك حالة أخرى وهي الحرب حيث انطلق الناطقون بالعربية إلى مواطن عدة. فكانت أولى الغزوات في تاريخ البحرية الإسلامية على قبرص في العام ٦٥٥/٢٨ وانتصروا فيها على الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري. وكما ورد في الوثائق الأجنبية أن العرب حاصروا القسطنطينية مرتين في الأعوام التي بين ٦٧٣/٥٤ – ٧١٦/٩٨.(٣) ثم إن القاعدة البحرية في تونس انطلقت منها الكثير من الغزوات على صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار ومالطة، ثم وصلوا إلى الساحل

(١) الجاحظ، البيان والتبيين. (بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٤٢٣)، ١٤٨.

(٢) الحازمي، "الرطانة كنتيجة للاتصال بين اللغات". مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية ١٨، (١٤٤٠): ٣٠٤ – ٣٤١.

(3) Fahmy, "Muslim Sea-Power in the eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century". (Cairo: National Publication 1966), 80-113.

الجنوبي لفرنسا وجَنَوَه وجنوب إيطاليا.[١]

ولا ننس في هذا السياق وصول العربية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا) مع المسلمين. وقد بدأت أحداث هذا الاتصال اللغوي بين العربية واللغات الرومانسية عام ٧١١ م. بعد عبور طارق بن زياد مع ما يقارب الاثني عشر ألف جندي ويبدو أن غالبيتهم من البربر. ثم بعد ذلك بعام عبر موسى بن نصير البحر ومعه جيش من المقاتلين العرب.[٢] وتجدر الملاحظة أن الفوج الأول من الفاتحين الذين رافقوا طارق بن زياد لم يكونوا عرباً بل كانوا من البربر الذين تقبلوا الدين الجديد وحاربوا تحت لوائه وربما أنهم ممن استعربت ألسنتهم. وحتى في حال ما كانوا لا يزالون عجماً ولم تستعرب ألسنتهم إلا أن العاقبة التي نجدها والأثر الذي حصل في اللغات الرومانسية يظل عربياً بالرغم من أن هناك فئاماً كثيرة من العجم دخلوا الأندلس إما فاتحين أو مستوطنين. إذ لو كان الأثر للبربر وغيرهم من العجم لظهر ذلك على اللغات التي اتصلوا بها في أوطانهم الجديدة. هذا وقد أشار بدرو تشالمتا Pedro Chalmeta أن هناك فئة كبيرة من العرب الذين جاؤوا مع الموجة الأولى رجعوا أدراجهم إلى شمال إفريقيا حينما ترك موسى بن نصير الأندلس سنة ٧١٤ م تلبية لدعوة الخليفة الوليد.[٣] وهذا إن دل فإنما يدل على أن كثرة العدد وإن كان لها تأثير إلا أن الأمر في يد القادة وهم العرب ولغتهم هي الغالبة. ثم إنها لغة الدين الذي يدين به جميع الفاتحين إضافة إلى من جاء واستوطن بعد الفتح. ولا شك أن اللغات المحلية الرومانسية بما فيها القشتالية التي أصبحت فيما بعد الإسبانية لم تندثر إبان السيطرة الإسلامية على الأندلس، بل ظلت موجودة وتفاعلت في اتصالها بالعربية وتأثرت وأثرت. والحقيقة أن هناك رأيين حول

(1) Lev, "Saladin in Egypt". (Leiden: E. J. Brill, 1999), 183-194
(2) Bramon, " Catalonia's Islamic Past: history, Language and Culture", *Quaderns de la Mediterrània*, (30-31, 2020), 163.
(3) Chalmeta, "Invasión e islamización. La sumisión de Hispania y la formación de al-Andalus". (Madrid, Mapfre , 1994), 35

مستوى الاندماج الذي حصل بين المسلمين وهم الناطقون بالعربية في الغالب، والسكان الأصليين سواء ممن اعتنق الإسلام أو من بقي على ديانته من النصارى أو الوثنيين بين ظهراني المسلمين. في هذا السياق أود الإشارة إلى أن هناك فئة من النصارى فضلوا البقاء على دينهم ولم يوافقوا على دفع الجزية فانتقلوا للإقامة في بلاد ما وراء جبال البرانس، إلا أن خيار المهجر لم يكن يُطيقه إلا من كانت حالتهم المادية تحتمل الهجرة والانتقال للإقامة خارج حدود شبه القارة الإيبيرية.

عوداً على الرأيين السابق ذكرهما: الرأي الأول وهو الذي يصفه البعض بأنه رأي المتشددين من المؤرخين الغربيين. ومفاده أن السكان الأصليين اندمجوا وذابوا ثقافياً في ثقافة القادمين إلى بلادهم من العرب والمسلمين، وهذا الرأي يتطلب افتراض أن المسلمين فرضوا قوانين صارمة تُلغي الثقافة المحلية.(١) أما الرأي الآخر ويقترحه المؤرخ الفرنسي بيير قوتشارد Pierre Guichard في كتابه الذي يحمل عنوان Al-Andalus *الأندلس*، ومفاده أن الاندماج لم يكن كاملاً، بل ظلت الروح والثقافات الإسبانية المحلية حاضرة، ولم يحصل تطهير ثقافي أو لغوي بهذا الخصوص.(٢) ويمكن دعم هذا الرأي من واقع النسبة والتناسب العددي بين الفاتحين وهم الذين يُفترض أنهم المتحدثون بالعربية وبين السكان الأصليين المنتشرين في كافة أرجاء المنطقة الجغرافية التي أُطلق عليها الأندلس. إذ يصعب على المجموعة الكبيرة أن تذوب بالكلية حتى تندثر ثقافياً في المجموعة الصغيرة. وبالرغم من ذلك يمكن القول إن الاندماج وإن لم يكن تاماً إلا أنه اندماج كبير وواسع، ويمكن إرجاع ذلك إلى اقتناع نسبة كبيرة من السكان بفكرة اعتناق الدين الجديد خاصة من الوثنيين.

(1) Bramon, " Catalonia's Islamic Past: history, Language and Culture", Quaderns de la Mediterrània, (30-31, 2020), 163.
(2)Guichard, Pieere. "Al-Andalus". (Paris: Hachette Littératures 2000), 34.

تأثير المعجمية العربية في معاجم اللغات الشرقية

إن مجاورة العربية لعدد كثير من اللغات أدى إلى تأثر علوم تلك اللغات بعلوم اللغة العربية وإن كان هذا التأثير ربما ليس مباشراً إلا أن هناك ما يدل عليه. وغالب ذلك التسلل المعرفي مرده إلى العلماء العجم الذين برعوا في علوم العربية حيث نقلوا شيئاً من مناهج علوم العربية إلى تصانيفهم بلغاتهم الأم. وغالب تلك التصانيف تدور حول تدوين اللغة وما يتعلق بها مثل تصنيف المعجم. حيث ظهر تأثرهم بمناهج تصنيف المعاجم العربية بشكل واضح في تقسيم الأبواب وحشو الكلمات.

الفارسية

لابد في هذا السياق من النظر في لغات الشعوب التي اعتنقت الإسلام مثل الفارسية والتركية. وبادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن اللغة الفارسية ضعُف فيها التأليف بعد أن زاحمتها العربية في عقر دارها. وذلك نتيجة للفتوحات الإسلامية في بلاد الفرس، الأمر الذي أدى لظهور جيل جديد من الفرس الناطقين بالعربية والمهتمين بها. وهذا ما صرف النابهين منهم نحو علوم العربية. حيث قدموا أعمالاً علمية عظيمة للعربية، على سبيل المثال، سيبويه وكتابه الذي سُمي فيما بعد قرآنَ النحو.

إن هذا التحول الذي طال الجانب الاجتماعي والثقافي ليس بالأمر السهل حدوثه، ولا يمكن فهمه إلا من خلال اعتناق هذه الشعوب للدين الجديد عن قناعة. وبعيداً عن التفكير الديني فسيظل السؤال معلقاً لماذا تترك هذه الشعوب لغاتها وتتعلم العربية، ويؤلف النابهون من أبناها في علوم العربية؟ وبما أن التغيير من سنة الحياة، واستحالة دوام الحال، فقد تغير المشهد الثقافي بشكل كبير بعد أن ظهر خطابٌ فارسيٌ متحيز ضد العرب تمخض عن ذلك الخطاب الحركة الشعوبية. ورغم أن هذه الحركة ظهرت كحركة اجتماعية إلا أنها سرعان ما تسللت إلى الكتابات الأدبية التي ألفها الفرس سواءً كانت تلك الأعمال مكتوبة بالعربية أو الفارسية. لم تتوقف الحركة

الفارسية عند تسللها إلى الأعمال الأدبية، بل وصل تأثيرها إلى الآراء والتصورات اللغوية.[١]

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى حقيقة أن الشعوبية أعادت الوهج إلى اللغة الفارسية وأدت إلى نشاط حركة التأليف بالفارسية وخاصة في الأدب. وقد كان لهذه الحركة فضل كبير على الأدب في الفارسية، الأمر الذي دفع بعض المؤلفين للقول بأن الفارسية كانت تفتقر إلى الأعمال الأدبية قبل الحركة الشعوبية التي كانت ملهِمة لنشأة أدبٍ فارسيٍ مستقلٍ ابتداءً من مطلع القرن العاشر الميلادي.[٢] ومن الغريب أن تأثر الفارسية بالعربية في بعض الجوانب كان مترتباً على ازدهار الأدب نتيجة للحركة الشعوبية، وهذا ما يوضح كيف أن اللغة انعكاس لحياة الناطقين بها من الناحية الفكرية والاجتماعية والثقافية. وفي مقدمة من قدموا أعمالاً أدبية بالفارسية ابتداءً من القرن العاشر وما بعده عدد من الشعراء من أمثال: فردوسي، روداكي وفرُّوخي. وبسبب التباين في مستوى اتقان الفرس للفارسية فإن عدداً من المتلقين كانوا يفتقرون إلى من يشرح لهم تلك القصائد. وربما كان هناك ضعف بين الفرس في معرفتهم وإتقانهم للغتهم كنتيجة لمزاحمة العربية للفارسية آنذاك. من هنا ظهرت الحاجة إلى تفسير تلك الأعمال الأدبية وفي مقدمة الكتب التي تشرح الأدبَ المعاجمُ التي تمثل العتبة الأولى في علم المعاني. والحقيقة فإن الوقوف على بدايات المعجم الفارسي قد تكون ضمن المسائل المجهولة، ومن المعاجم المعروفة الباكرة في الفارسية معجم أبي حفص الصغدي المتوفى قبل سنة ٨١٥/٢٠٠ وهناك معجم آخر منسوب إلى الشاعر روداكي ت. (٩١٦/٣٠٤) يشرح فيه الكلمات التي وردت في شعره. وهذا المسار

(1) Agius, The Shu<]biyya Movement and its Literary Manifestation. (Islamic Quarterly 3 1980), (IV): 83.

(2) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 116.

الذي يزدهر فيه الأدب يتسبب في ظهور الحاجة إلى المعجم الذي تأثر في نشأته وترتيبه بالعربية.

هناك أيضاً معجم أسدي طوسي Lughat-e Fors *لغتي فرس* الذي قال في مقدمته إنه معجم للغة أهل بلخ، ما وراء النهر، خراسان وغيرهم. وعند النظر في ذلكم المعجم المتقدم تاريخياً نجد أن مؤلفه قد رتبه ألفبائياً تحت آخر حرف من كل كلمة. وهذا الترتيب لافتٌ للانتباه في اللغات الأخرى غير العربية التي غالباً ما تُرَتَّب الكلمات في معاجمها تبعاً للحرف الأول وليس الأخير. والأمر الآخر اللافت للانتباه هو أن الأواخر التي ليست من الحروف الأصلية للكلمة يتم استبعادها من الترتيب وبهذا ينتقل الترتيب إلى الحرف الذي قبلها. نحو الباء والهاء في كلمتي (آبي) و (نيابه) فهاتان الكلمتان تندرجان تحت باب الباء وليس الياء أو الهاء. ولابد في هذا السياق من وقفة تشير إلى عدة أمور:

أولها: أن ترتيب الكلمات تبعاً لآخر حرف نتيجةٌ للتأثر بالنظام المعجمي الذي افتنَّه الجوهري، وفي قول آخر أن هذا النظام افتنَّه البندنيجي في كتاب التقفية، أو الفارابي خال الجوهري في كتاب ديوان الأدب ثم قام الجوهري بتطويره وإنضاجه،(١) ومناقشة هذه المسألة خارجةٌ عن إطار هذا البحث وحدوده. وإذا تأملنا نشأة هذا النهج ودورته نجد أنه في حال ما كان البندنيجي هو مخترع النظام وهو فارسي الأصل ينتسب إلى بندنيج من أعمال بغداد، وفي حال ما لو كان المفتنُّ لنظام القافية هو الفارابي خال الجوهري أو الجوهري نفسه فهؤلاء كلهم عجم وليسوا بعرب.

ثانيها: أنه أياً كان مخترع نظام القافية إلا أنه اخترعه متأثراً بالشعر العربي وذلك لخدمة القافية في الشعر العربي، الذي نشأ في بيئة عربية أصيلة ظلت لقرون بعيدةً عن الاتصال بما يُفسد اللغة على حد رأي اللغويين الذين جمعوا اللغة. هذا الشعر العربي

(١) نصار، "المعجم العربي نشأته وتطوره" (القاهرة: مكتبة مصر، ١٤٠٨) ، ٣٨٢.

ألهم المؤلفين العجم بقافيته فأبدعوا في التصنيف المعجمي. ولشهرة تآليفهم كالصحاح للجوهري إضافة إلى تآليف العرب الذين اتبعوا هذا النهج مثل ابن منظور في اللسان فقد تأثر بهم مؤلفو المعاجم في اللغات الأخرى. وهنا يظهر الاتصال الكبير الذي خلفته العربية في تلقِّيها للتأثير من اللغات الأخرى والمؤلفين الأعاجم ثم في تصديرها لذلك الأثر بعد تطويره وتحسينه إلى علوم اللغات الأخرى.(١)

وحينما نتعمق في ترتيب معجم أسدي طوسي يتضح لنا تأثره بالمعاجم العربية. فالكلمات غالباً ما تُرفقُ بالشواهد الشعرية، كما اشتمل المعجم على أسماء بعض الشعراء المعروفين كما نجد في المعاجم العربية الباكرة. وما ذاك إلا نتيجة للتأثر بالدرس المعجمي العربي الذي حظي بشهرة واسعة، ووصل إلى مراحل متقدمة من النضوج مقارنة بما حصل في اللغات الشرقية الأخرى التي جاورت العربية أو التي اعتنق ناطقوها الإسلام.

في هذا السياق أود التذكير بما ذُكِر أعلاه من أن الاتصال بين العربية وغيرها من اللغات الشرقية يشارك فيه علماء العربية العجم الذين كان لهم شأنٌ في العلوم العربية والإسلامية، ثم رأوا أن ينقلوا شيئاً من تلك المعارف إلى لغاتهم الأم. وهنا أود التركيز على الاتصال العلمي في جانب صنعة المعجم وبتحديد أكثر دقة المعاجم الثنائية اللغة، وممن أسهم في ذلك عالم اللغة الزمخشري. فقد ألف معجماً جمع فيه بين العربية والفارسية واسمه *المقدِّمة*، وعن هذا المعجم يقول المستشرق إدوارد بروان Brown وهو أستاذ مستعرب متفرسن في جامعة كامبريدج: إن هذا المعجم الثنائي اللغة كان عملاً رائداً في زمانه، وقد ألفه الزمخشري الذي كان من المعارضين للحركة الشعوبية. ولعل هدفه من تأليف هذا المعجم هو بناء الجسور بين الثقافتين العربية

(1) Toosi, "Lughat-e Fors". Ed. Mohammad, (Tehran: Dbair Syaqi, 1957), 128.

والفارسية، الأمر الذي يكبح جماح الشعوبيين من الطبقة غير المتعلمة حينما تُقدَّم لهم العربية ويُعانُون على فهمها بهذا المعجم[١]. وتبعه أيضا الزوزني شارح المعلقات حيث ألف معجمين (مفقودين ولم يرد ذكرٌ لعنوانيهما) يجمعان بين العربية والفارسية أحدهما مخصص ليكون عوناً للمسلمين الناطقين بالفارسية على قراءة النصوص المقدسة. ويظهر هنا التأثير الذي نقله الزمخشري وهو الذي افتن هذا النوع من المعاجم الثنائية حيث استند إلى المدرسة العربية المعجمية المعروفة بالألفبائية.[٢] وهذه المدرسة افتنها ابن دريد، فهو أول من ألف عليها معجما كبيراً بحجم الجمهرة.[٣] ثم استمر بعد ذلك مؤلفو المعاجم الفارسية الدينية لا ينفكون عن هذا النظام الذي افتنه الزمخشري في لغتهم متأثراً بنظام ترتيب الحروف في العربية. ثم إن هناك خصيصةً أخرى طبقها الزمخشري في هذا المعجم الثنائي بين العربية والفارسية وهي تقسيمه المعجم إلى خمسة أقسام. وهذه الأقسام مأخوذة من العربية وهي: الأسماء، الأفعال، الأدوات، تصريف الأسماء، تصريف الأفعال.[٤]

وبعد ذلك انتقل التأليف في المعاجم الفارسية إلى الهند.[٥]وكانت باكورة تلك المعاجم *أداة الفضلاء* لقازي خان بدر محمد الذي ألف المعجم سنة ١٤١٩/٨٢٢ تبعاً للألفبائية. يعلق هايوود على ما حدث في هذه المعاجم قائلاً إن مؤلف هذا المعجم سار على ترتيب المعاجم العربية مع شيء من الخلل الذي جعل الترتيب يبدو بحالة سيئة. ثم جاء معجم بعنوان *شرفنامي* الذي جمعه إبراهيم قوَّام فاروقي. وقد ألفه

(1) Browne, "A Literary History of Persia". (London: Unwin 1906), 2:356.
(2) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 107.
(٣) نصار، "المعجم العربي نشأته وتطوره" (القاهرة: مكتبة مصر، ١٤٠٨)، ٣٧٠.
(4) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 118.
(5) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 117.

سنة ١٤٢٨ ميلادية متبعاً فيه نظام القافية. استمرت المعاجم الفارسية آنذاك متأثرة بشكل واضح بمناهج المعاجم العربية مع طغيانٍ واضح نحو التأثر بمدرسة القافية إن في ترتيبها العام أو داخل الأبواب والمداخل المعجمية. وفي بواكير العصر الحديث جمع محمد حسين خلف التبريزي سنة ١٦٥٢ معجمه الفارسي المعروف *برهانِ قاطعِ* متبعاً فيه الترتيب الألفبائي الحديث، الذي يمكن أن نسميه الترتيب الواقعي. ولا شك أنه في ذلك كان متأثراً بترتيب معاجم اللغات الأوروبية. ومع ظهور هذا المعجم يمكن القول بأن تأثير المعجمية العربية توقف. حيث خرجت المعاجم الفارسية إلى الحرية والسهولة التي يوفرها نظام المعجم الواقعي المعاصر.(١) وتجدر الإشارة إلى أن المعاجم الفارسية رغم أنها كانت أقرب جغرافياً إلى الهند، بل إن بعضها أُلِّفَ هناك لم تتأثر بترتيب المعاجم السنسكريتية وربما أن ذلك عائد إلى صعوبة الترتيب في المعاجم الهندية التي تتبع نظاماً صوتياً معقداً قد لا تكون أصواته متوفرة في الفارسية.

التركية

أما فيما يتعلق باللغة التركية ومعاجمها أود التنويه إلى العلاقة التي جمعت اللغات الثلاث وهي العربية والفارسية والتركية. وكانت بداية الاتصال بين العربية والتركية في بواكير القرن الحادي عشر الميلادي حيث تحول أغلب أسلاف أتراك اليوم إلى اعتناق الإسلام. والذي قاد هؤلاء الترك إلى الإسلام وقدمه لهم مجموعاتٌ كبيرةٌ من الناطقين بالفارسية. ولذلك فإن المصطلحات الدينية الأساسية في التركية تعود في أصولها إلى اللغة الفارسية، أو غيرها من اللغات التي كانت قائمة في أراضي إيران وما جاورها. وبعد أن استقر الأتراك في بلاد الإسلام واتصلوا بالعرب مباشرةً دون وسيط حافظوا على لغتهم وأخذوا من العربية ما كانوا بحاجةٍ إليه من الألفاظ، وخاصةً الكلمات

(1) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography", 118.

الإسلامية.[١] ثم إن اجتياح العربية وتسللها بشكل لافت إلى ألسنة الأتراك كان قديما جداً وهناك ما يدل على أنه حدث قبل ظهور العثمانيين. ويمكن الوقوف على ذلك في قصةٍ تعود إلى أحد المراسيم التي أصدرها شمس الدين محمد كرمن أوغلو سنة ١٢٧٧ ميلادية، وهو الوزير الأول لحاكم مدينة قونية. ومفادُ ذلك المرسوم أنه لا يجوز لأحد كائناً من كان منذ وقت المرسوم أن يستعملَ غير التركية في المحكمة أو في المكاتب الإدارية للدولة أو في الأماكن العامة. وكان ذلك نتيجة لشيوع استعمال اللغتين العربية والفارسية في أكبر المدن في تركيا لدرجة دفعت بعض الأتراك إلى القول بأنه لم تعد هناك تركية في تركيا، فكل ما يسمعونه إما عربي أو فارسي. حتى من كان يتحدث بالتركية آنذاك كان يتحدث بلغة فيها الكثير من الكلمات المقترضة من الفارسية والعربية.[٢]

وقد كان سيل الكلمات العربية الذي اجتاح التركية أكبر بكثير من كمية الكلمات الفارسية التي دخلت إلى التركية. بل إن الكلمات الفارسية التي دخلت إلى التركية تعود في كثير من أصولها إلى اللغة العربية؛ لأن الفارسية اقترضت من العربية ما تحتاجه من قبل. وعند النظر أكثر في نوعية الكلمات المقترضة من العربية نجد أنها في الغالب إما دينية أو علمية. وفي حال ما كانت الكلمة المقترَضة لها مقابل في التركية غالباً ما يُستغنى عنها وتُستبدل بالكلمة العربية، وفي بعض الأحيان لا تموت الكلمة التركية المقابلة، ولكن تظل موجودة في الكتابات الأقل مستوى. ومن ذلك كلمة sin التركية التي تعني القبر حيث وردت في قصائد شعرية في الفترة الزمنية ما بين القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين ميلادي إلا أننا في الكتابة الأعلى مستوى في الفصاحة نجد كلمة mezar (مزار) التي تعود في أصلها إلى اسم المكان بالعربية وهو

(1) Lewis, "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success". (Oxford: Oxford University Press, 1999), 5.
(2) Lewis, "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success, 10.

مَزار على وزن مَفْعَل وأصلها مَزوَر.[١] وهنا تظهر مكانة الكلمة العربية وتأثيرها النفسي وارتباطها بفكرة المزار الروحية بدلاً من مجرد القبر المادي الذي يضم الرفات. وهناك الكثير من الكلمات التي تشبه كلمة مزار مثل الكلمات التي أخذها الترك من العربية حول الدين أو العلم ومن ذلك كلمة: عالم (عالم بالدين)، وجمعها علماء، ومعلوم (معروف) ومُعَلِّم، وتعاليم وأخيراً استعلام، وهنا نشهد شبه اقتراض لمادة بكاملها.[٢]

ولكن الأمر لم يتوقف عند مجرد الاقتراض اللغوي فحسب، بل وصل إلى التأثير في القواعد النحوية. ومن ذلك أن اللغة التركية وُلدت خالية من مسألة الجنس في القواعد ويدخل تحت ذلك المؤنث والمذكر المجازي. إلا أن التركية وبعد اتصالها الوثيق بالعربية تسللت إليها هذه الخصيصة اللغوية في الكلمات المقترضة أولاً. وبما أن الكلمات المقترضة ربما كانت من المؤنث المجازي أُضيفت التاء إليها للإشارة إلى أنها مؤنث. ومن ذلك كلمات مثل: <ul]m-i %abiiyat (العلوم الطبيعية)، هذه المظاهر من التأثر في القواعد ونحوها وصلت أوجها في المرحلة التي كان يُطلق فيها على التركية اللغة العثمانية. وإذا أردنا الوقوف على مكونات هذه اللغة نجد أنها هي تلك التي تشكلت من الموارد الثلاثة للغة التركية وهي التركية السلجوقية والفارسية ثم العربية.[٣]

المتأمل للمشهد اللغوي في كل من تركيا – التي اعتنق غالب سكانها الإسلام – في مقابل ما حدث في الشام ومصر وشمال أفريقيا بعد الفتوحات الإسلامية يجد أن تركيا لم يتغير فيها اللسان من التركية إلى العربية بخلاف مصر ودول شمال إفريقيا. ورغم أن قصة المرسوم المذكورة أعلاه توضح مدى سيطرة اللغة العربية في تركيا آنذاك

(1) Lewis, "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success", 6.
(2) Lewis, Geofferey. "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success". (Oxford: Oxford University Press, 1999), 5.
(3) Lewis, Geofferey. "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success", 7.

بالإضافة إلى أن الكثير من الكلمات التركية تعود لأصل عربي، إلا أن هناك بعض الإجراءات التي قام بها الحكام الأتراك حمت التركية من التلاشي في سيل العربية العارم. ثم إن الذين حكموا مصر وشمال إفريقيا بعد الفتح كانوا من العرب ولا شك أنهم استعملوا العربية كلغة للدين والدولة الأمر الذي سرَّع عملية تعريب لسان سكان تلك المناطق. في المقابل فإن الذين حكموا الأقاليم التركية بعد اعتناق سكانها للإسلام في أغلبيتهم من الأتراك. ولا شك أنهم وإن عرفوا أهمية العربية كلغةٍ للدين إلا أنهم أبقوا على لغة الدولة وهي التركية. ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم في عصر حكمهم لبعض أجزاء من العالم العربي قاموا ببعض الإجراءات التي تصب في صالح اللغة التركية.

لم تكن الصنعة المعجمية قديمة أو أصيلة في علوم اللغة التركية فلقد كانت بدايات المعاجم التركية عبارة عن شروحات للكلمات متقابلة فيما يشبه القوائم بين اللغتين الفارسية والعربية من جهة، واللغة التركية من جهة أخرى. وقد ظل حال المعجمية التركية هكذا حتى بدايات العصر الحديث. وبعض هذه الأعمال يأخذ شكل ترجمة لشروح الكلمات العربية الموجودة في اللغة التركية أصلاً وهي من الكثرة بحيث يمكن أن تُشكل في مجموعها عملاً مستقلاً.(١)

إلا أن هناك معجماً جمعه كشغري في بغداد واسمه ديوان لغة الترك سنة ٤٦٦/١٠٣٢ كسر هذا الجمود الذي كان سائداً في المعاجم التركية السابقة واللاحقة، وقد كتب المؤلف شروحات الكلمات التركية باللغة العربية. والمنهج الذي سار عليه في تصنيف الكلمات خليط من عدة مناهج عربية، ولعل ذلك مرده إلى حقيقة أن التركية خليط من العربية والفارسية، فبعض الكلمات يمكن إدراجها تحت

(1) Haywood, Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 120.

المناهج العربية؛ لأن أصلها عربي، وبعض الكلمات تدخل عرَضاً كتلك الكلمات التي يبدو عليها أنها تعود إلى فكرة الجذر الثلاثي الغالب في العربية. إلا أن النهج الذي يبدو واضحاً في جنبات هذا العمل هو مدرسة القافية وليس ذلك بمستغرب، فالجوهري تركي وهو صاحب أهم معجم في مدرسة القافية. وقد قسم الكتاب إلى أبواب اتبع فيها التقسيمات العربية ومن ذلك إفراده باباً للأسماء وباباً للأفعال وباباً للحروف بالإضافة إلى باب للأدوات. كل هذا من شواهد الاتصال العملي الذي وثقته الكتب على اختلافها بين العربية والتركية خاصة وأن التركية قد تعرضت للكثير من التأثر بالعربية.

ثم قدم فاقولي المتوفى سنة ١٠٠٠/١٥٩١ ترجمة كاملة نقل فيها كتاب الصحاح للجوهري من العربية إلى التركية. وكان فاقولي عالماً تولى القضاء في مدينة قاخ الأذربيجانية وكذلك في مدينة سالونيكا اليونانية، ومات وهو مُلَّا زمانِه. ومن هنا فقد اشتهر معجمه بين طلاب العلم من الناطقين بالتركية وكان كتابه في طليعة الكتب التي طُبعت في أول مطبعة تركية.(١)

والحقيقة أن ترجمة معجم عربي كامل ونقله إلى التركية يشكل حالةً متقدمة من الاتصال بين اللغات. ولا غضاضة في ذلك، فالمعجم هو مستودع اللغة ومعينُها الذي يضم خبرات الناطقين بها وتاريخهم وثقافتهم وأيامهم وعقائدهم أيضاً. هذا العمل أيضاً يمثل جسراً تعبر منه المعرفة اللغوية بما فيها من تصنيف للكلمات وشرح لها

(1) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography", 120.

إضافة إلى المعلومات الصرفية والنحوية واللغوية التي في تكتظ بها المعاجم. ولا شك أن مثل هذه المعلومات والمناهج تجد طريقها نحو اللسان التركي، إن على مستوى اللغة المحكية، أو لغة التأليف ومناهجه. وما ذلك إلا لأن الترجمة ليست مجرد وضع كلمة مقابل كلمة أخرى، بل إنها عمليةٌ معقدة لنقل سياقٍ ثقافي من أمة إلى أخرى. ويزداد هذا السياق الثقافي تعقيداً في الحالة الماثلة أمامنا، وهي ترجمة المعجم التي تمثل ترجمة لفكر لغوي متكامل من نهجٍ لترتيب الحروف ثم ترتيبٍ للكلمات داخل الأبواب والفصول، والأمر تتداخل فيه جوانب لغوية عدة.

العربية واللغات الرومانسية في شبه الجزيرة الإيبيرية

إن شبه الجزيرة الإيبيرية عبارة إقليم تحدُّه المياه من أربع جهات تقريبا، باستثناء صلة برية ضيقة نوعا ما تربطه بأوروبا. ويقع هذا الإقليم في جنوب غرب القارة الأوروبية ويضم إسبانيا والبرتغال وجبل طارق إضافة إلى جزء من جنوب فرنسا، وتبلغ مساحته 583,254 كيلو متراً مربعاً.(١) أما فيما يخص اللغة السائدة في هذا الإقليم فقد سادت فيه اللاتينية التي انتشرت من إيطاليا حتى أصبحت لغة الكثير من الأقاليم المجاورة لها حول البحر الأبيض المتوسط. ونتيجةً لانتشار هذه اللغة في رقعة جغرافية مترامية الأطراف أخذ ناموس التطور اللغوي يسري فيها. ونتيجةً لذلك تطورت اللغة اللاتينية إلى أسرة من اللهجات، التي تطور بعضها حتى غدا لغة مستقلة عن الأم وهي اللاتينية. ومن هنا فإن أشهر اللغات الرومانسية المنشعبة عن اللاتينية يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات على النحو التالي: الأولى، الفرنسية والأُكستانية في جنوب فرنسا، والثانية، الإيطالية والرومانية والرومانشية (إحدى اللغات الأربعة المستعلمة في سويسرا)، والثالثة هي الكتالانية والإسبانية والبرتغالية.(٢)

اتصال العربية بهذه اللغات بدأ مع فتح الأندلس سنة ٧١١ م، وقد نتج عن ذلك الكثير من الآثار اللغوية. واتصال العربية بلغات هذه المنطقة لم يكن مجرد اتصال لغوي، بل تجاوز ذلك؛ لأن العربية هناك وهي الضيفة تشكلت حولها ظروف معينة جعلتها تتفوق على اللغات المحلية، حتى أصبحت العربية لغة الثقافة المرموقة متفوقةً بذلك على اللغات المستعملة في أرجاء القارة المسيحية (أوروبا).(٣) ولا شك أن

(1) Lorenzo-Lacruz, J.; Vicente-Serrano, S. M.; López-Moreno, J.I.; González-Hidalgo, J.C.; Morán-Tejeda, E. "The response of Iberian rivers to the North Atlantic Oscillation". *Hydrology and Earth System Sciences*. 15, (2011). (8): 2582.

(2) Penny, "A History of Spanish Language". (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 2-4.

(3) Penny, "A History of Spanish Language", 16.

العربية حينما أزاحت اللغات الرومانسية في ذلك الإقليم وحلت محلها لم يؤدِ ذاك إلى اندثار تلك اللغات، بل ظلت حية تحتل الدرجة الأقل أهمية. وعند تأمل هذا المشهد من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي فإن اللغة الغالبة superstrate language لابد أن يكون لها الأثر الأكبر على اللغة الأقل منزلة. وهذا التأثير قد يكون قوياً ومستمراً عبر القرون حتى يؤدي إلى اندثار اللغة الأقل منزلة خاصة لو ظلت الأوضاع السياسية والاجتماعية دونما تغيرات كبيرة تقلب المشهد اللغوي.(١)

وبناءً على ما تقدم في علم اللغة الاجتماعي فحينما نتأمل الحال في الأندلس يبدو أن الأمور كانت منذ دخول الجيوش الإسلامية تسير في ركب السيناريو المذكور أعلاه الذي يشتد فيه تأثير اللغة الغالبة عبر القرون حتى تندثر اللغات المحلية. حيث كانت العربية تتقوى في الأندلس بأمور عدة، في مقدمتها دخول كثير من السكان في تلك المناطق في الإسلام الذي غالباً ما شكل عاملاً قوياً إن لم يكن الأقوى لانتشار العربية. ولكن العربية تراجعت بشكل كبير وتدريجي منذ أن بدأ المسيحيون بشن الحروب لاستعادة السيطرة على شبه القارة الإيبيرية وذلك عام ١٢٣٦ م. حيث سيطروا على قرطبة، ثم استمر تراجع العربية حتى سقطت جميع الممالك في أيدي المسيحيين عام ١٤٩٢ م.

في سياق الحديث عن تأثر اللغات الرومانسية بالعربية سأقتصر على ما نجده في اللغة الإسبانية ومرد ذلك إلى أمرين: أحدهما فوق لغوي والآخر لغوي. فإذا نظرنا إلى الجغرافيا فسنجد أن أقرب اللغات الرومانسية للعربية هي تلك المنطوقة في شبه الجزيرة الإيبيرية. وليس الأمر مجرد قرب جغرافي فحسب، بل تجاوز ذلك حيث أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية ناطقة بالعربية. إضافة إلى أن هذا الإقليم حافظ مع العربية وهي اللغة الجديدة على التنوعات اللغوية الرومانسية. والسبب الثاني وهو اللغوي عائد إلى

(1) Holm, An Introduction to Pidgins and Creoles. (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 61.

حقيقة أن الإسبانية اليوم تعايشت في الماضي مع عدد من اللغات الرومانسية ولكن كان بين هذه اللغات الرومانسية صراع على البقاء والأهمية. فحصل أن لغة إقليم معين وهو إقليم قشتالة ولغته القشتالية تغلبت على بقية اللغات الأخرى حتى أصبحت هي الإسبانية اليوم. ولذلك فإن الناطقين بالإسبانية يُسمون لغتهم كاستيليانو Castellano.(١) ومن هنا فإن الإسبانية التي تُعد من اللغات ذات الانتشار الواسع اليوم يمكن أن نتلمس فيها آثار العربية أيام تعايشهما في شبه الجزيرة الإيبيرية. ورغم أن هناك لغات أخرى نجت من الاندثار تعود إلى عصور الاتصال بالعربية مثل الكاتالانية والبرتغالية إلا أن الإسبانية لها حظ أكبر من التدوين والدراسة. ويعود السبب في تطور القشتالية وغلبتها إلى أحد ملوك قشتالة وهو ألفونسو Alfonso X. وقد عمل هذا الملك على تطوير نظام لكتابة القشتالية وهي إحدى عاميات اللاتينية. وقد ضاهى هذا النظام كتابة اللغة الأم (اللاتينية) الأمر الذي شكل بداية مرحلة مَعْيَرَة تلك اللغة. لأنها لم تعُد منطوقةً فقط، بل أصبحت لغةً رسمية مكتوبة بإشراف الملك، ويعود المرسوم الملكي الخاص بتطوير نظام الكتابة إلى العام ١٠٨٠ م.(٢) وهذا يقدم لنا صورة واضحة حول التأثر الذي طال اللغة القشتالية التي تطورت وأصبحت إسبانية اليوم. كما أود الإشارة إلى أن تأثر بقية اللغات الرومانسية كالفرنسية والإيطالية وغيرها بالعربية غالباً ما يكون عبر لغة وسيطةٍ وهي الإسبانية التي كان لها قصب السبق في الاتصال بالعربية والتأثر بها.

(1) Penny, "A History of Spanish Language". (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 30-31.

(2) Wright, "Late Latin and Early Romance in Spain and Carolingian France" (ARCA Classical and Medieval Tex.ls. Papers and Monographs). (Liverpool: Francis Cairns, 1982), 14.

مظاهر تأثر الإسبانية بالعربية على مستوى الألفاظ

من أوائل مظاهر التأثر بين اللغات التي يتصل بعضها ببعض اقتراض الكلمات التي تتخذ طريقها إلى الأعمال المكتوبة باللغة المضيفة، وهذا هو الحال بالنسبة للغات التي اتصلت بها العربية. في هذا السياق أود التذكير بأنني فيما يتعلق باللغة الإسبانية لن أركز على تأثر الإسبانية بمناهج تأليف المعجم كما حصل مع الفارسية والتركية؛ ببساطة لأن هذا النوع من التأثر ليس موجوداً في الإسبانية. ورغم ذلك ستظل هذه المناقشة حول الإسبانية ليست بمنأىً عن المعجم، حيث سأتناول الكلمات العربية التي اقترضتها اللهجة القشتالية قديماً وحافظت عليها حتى وجدنا تلك الكلمات في معاجم الإسبانية اليوم. ولا يهدف هذا المبحث لحصر أو دراسة تلك الكلمات بقدر ما يركز على تحليل المشهد اللغوي التاريخي وتقديم فهمٍ أعمق للظروف التي تسللت فيها هذه الكلمات إلى اللغة الإسبانية. وبادئ ذي بدء، فلابد من البحث عن الأسباب المباشرة التي أدت إلى اقتراض الإسبانية من العربية. إذ لا يمكن حصر تلك الأسباب في مجرد قضية الاتصال الواسع بين اللغتين الذي لامس الكثير من الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية، وكان على رقعة جغرافية واسعة، وفي فترة زمنية امتدت لقرون (من القرن الثامن وحتى الخامس عشر ميلادية).

يمكن إجمال الأسباب المباشرة للاقتراض في هذه الحالة في عاملين رئيسين: الأول، الحاجة إلى الكثير من الأسماء التي تعبر عن مفاهيم دخيلة سواء كانت تلك المفاهيم متعلقة بأشياء محسوسة أو معانٍ تجريدية كانت تفِد من الأندلس الناطقة بالعربية إلى إقليم قشتالة. أما العامل الثاني فيكمن في أن العربية كانت لغةً مرموقة مقارنة بغيرها من اللغات المحلية في بواكير العصور الوسطى؛ لأن العربية لم تكن مجرد لغة فحسب، بل إنها نقلت ثقافة متكاملة. وهذه الثقافة لم تتفوق على الثقافة

الإسبانية المسيحية فحسب، بل تفوقت على عموم الثقافات الأوروبية المسيحية.[١] والعامل الأول مسؤول عن الكلمات الجديدة التي لم تكن موجودة من قبل في الإسبانية. أما العامل الثاني فمسؤول عن الكلمات العربية التي أزاحت مقابلاتها في القشتالية بسبب قضايا تتعلق بالمنزلة اللغوية التي تبوأتها العربية آنذاك.

وإذا نظرنا إلى الكلمات التي دخلت من العربية نجد أنها في غالبها أسماء وهي في عددها تتفوق على الكلمات التي اقترضتها الإسبانية من اللغات الأخرى المجاورة. وفي الغالب فإن الكلمات العربية في الإسبانية تبدأ بالمقطع الصوتي التالي: (al) وهذا ما يمثل أل التعريف التي تتصدر الكلمات العربية سواء دلت تلك الكلمات على المؤنث أو المذكر. ويُلاحظ أن الكلمات المقترَضَة في الإسبانية من العربية في بعض الأحيان تعود مجموعة منها إلى حقل دلالي واحد.[٢] الأمر الذي يدل على أن هذا الحقل الدلالي كان غائباً عن اللغة القشتالية؛ ولذا فقد حصل الاقتراض لكثير من الكلمات المنضوية تحت ذلك الحقل الجديد. وفي مقدمة تلك الحقول الدلالية الحرب، حيث تسللت الكثير من الكلمات الحربية من العربية مثل alarde للعرض العسكري و almiral للأميرال و rehen للرهينة أو المعتقل و tambor للطبل و alcázar للقلعة (القصر) و atalaya الطليعة للمراقبة.[٣] لعل الذي ساعد على دخول المصطلحات الحربية مسألة الحروب التي نشبت بين المسلمين الناطقين بالعربية وسكان شبه الجزيرة الإيبيرية إبان بداية الفتح الإسلامي.

ولا ننس في هذا السياق عدة أمور وهي: أولاً أن الحرب شكلت أول ميدان تتصل فيه العربية باللغات الرومانسية في الأندلس. ثانياً أن العرب ربما كانت لديهم

(1) Penny, "A History of Spanish Language". (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 266.
(2) Penny, "A History of Spanish Language", 265.
(3) Penny, "A History of Spanish Language", 266.

طرائق وأدوات حربية جديدة على سكان شبه الجزيرة الإيبيرية؛ ولذا اقترضوا تلك المصطلحات الجديدة. ثالثاً، أن العربية كانت بعد الفتح هي اللغة الغالبة ولغة الدولة الرسمية، ولا شك أنها حظيت بمكانة معينةٍ تجعلها قادرة على إزاحة بعض المصطلحات الحربية الموجودة في لغات الأندلس الأصلية. وهناك مجالات أخرى كثيرة في شتى مناحي الحياة قدم العرب فيها للإسبان أموراً لم يعهدوها من قبل. وقد دخلت مصطلحات تلك الأشياء الجديدة إلى الإسبانية.

وسأكتفي إضافة للحرب التي تقدم ذكرها بمجال آخر وهو الزراعة فعلى سبيل المثال جاء الزيت والزيتون إلى إسبانيا مع العرب ولذا نجد الكلمتين التاليتين: aceite الزيت وaceituna الزيتونة ويُلحظ في هاتين الكلمتين محافظتهما على نطق أل الشمسية إذ لم تبدأ الكلمة بأل al بل بدأت بالهمزة وحُذِفت اللام. مما يدل على أن التأثير كان من الناحية الصوتية ولا علاقة له بنظام الكتابة. وكذلك كلمة acelga وهي الخضرة المعروفة بالسِّلق، و albaricoque البرقوق alcachofa الخرشوفة (أرضي شوكي) وهي ثمرة جاءت من موطنها الأساسي وهو الشام، و alfónsigo الفستق و algodón القطن. وهناك كلمات متعلقة ببعض التقنيات الزراعية مثل كلمة almzara المعصرة وهي معصرة زيت الزيتون، alberca البِرْكة (مثل خزان الماء)، وغير هذه الكلمات الكثير في مجالات عدة وليس هذا موطناً لحصرها.(١)

هذه الكلمات تسلل الكثير منها إلى المعجم الإسباني إلا أن نهج التأليف المعجمي في هذه اللغة التي كانت طور التشكل لم يتأثر بمناهج تأليف المعجم العربي. رغم أن من ألفوا معاجم هذه اللغة في العصور الباكرة كانوا على اتصال وثيق بالعربية وعلومها ومصادرها وفي مقدمة تلك المصادر المعاجم. لا سيما وأن بعض أشهر المعاجم العربية أُلفت في الأندلس مثل *المخصص* و*المحكم* لابن سيدة و*المحيط في اللغة*

(1) Penny, "A History of Spanish Language". (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 267.

للصاحب ابن عباد. ومن أشهر من ألفوا في المعجمية العربية والقشتالية آنذاك قسٌ إسباني قام بتأليف أول معجم عربي إسباني وكان محباً للعربية وله سمعة طيبة بين العرب والمسلمين حتى سموه المقدس الفقيه. وهو بيدرو دي ألكالا المعروف في العربية ب بيدرو القلعاوي. وهذا أول معجم عربي – إسباني، مكتوب بخط اليد ورغم أنه تم تأليفه عام ١٥٠١، ولكن نظرًا لعدم وجود طابعة في غرناطة يمكنها القيام بذلك باستخدام الأحرف العربية. تأخرت الطباعة حتى طبعه خوان سالامانكا الذي تمكن من تجهيز طابعة بحروف عربية في غرناطة وطبعه عام ١٥٠٥ وهذا المعجم عربي مكتوب بحروف قشتالية، ولم يتأثر هذا المعجم بمناهج المعجم العربي.

عُثِرَ على هذا الكتاب في نسخة مكتبة إسبانيا الوطنية، وهذا العمل فريد في التعرف على اللغة الأندلسية العربية؛ لأن مؤلفه كتبه بالعامية الأندلسية التي كان يتكلم بها الناس ولم يكتبه بالفصحى، وهو أيضا مرجع في التعرف على ثقافة تلك الحقبة. تكمن أهمية هذا الكتاب أيضا بأنه أول كتاب مطبوع في العالم ظهرت فيه حروف اللغة العربية. ثم مر ما يقرب من عشر سنوات قبل نشر ثاني كتاب تظهر فيه اللغة العربية عام ١٥١٤ في إيطاليا (كتاب الساعات)، (Haywood 1960, 129).[١]

(1) Haywood, "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (Leiden: E. J. Brill; second edition, 1960), 129.

العربية الأندلسية إحدى مخرجات الاتصال بين العربية واللغات الأخرى

لا شك أن اتصال العربية باللغات الرومانسية كان له مخرجات عدة، ومن تلك المخرجات العربية الأندلسية، والعربية اليهودية، والعربية النصرانية وهاتان الأخيرتان عبارة عن مستويين لغويين كتب بهما المستعربون من اليهود والنصارى، إلا أنني في هذه العجالة سأقتصر على النظر إلى العربية الأندلسية؛ لأنها تمثل أهم مخرجات الاتصال بين العربية واللغات الرومانسية.

تقدمت الإشارة إلى الظروف التاريخية والسياسية التي اتصلت بسببها العربية باللغات الرومانسية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد حصل ذاك الاتصال بين القرنين الثامن وحتى السابع عشر الميلادي. ونتيجة لتلك الظروف فقد أصبحت العربية اللغة الرسمية في الأندلس. إلا أن سُنَّة اللغات تقتضي تطورها وانشعابها إلى تنوعات لغوية وهي التي ربما نطلق عليها مصطلح لهجات. وهذا ما حدث للعربية هناك حيث كانت عبارة عن مجموعة من اللهجات المتداولة في أقاليم مختلفة في الأندلس.[١] فعلى سبيل المثال يرى كورينتي Corriente وهو أحد أهم المستشرقين الإسبان أن لهجة إقليم غرناطة كانت الأكثر محافظة على الظواهر اللغوية العربية الأصيلة مقارنة باللهجات العربية في الأقاليم الأخرى. وهو يعيد السبب في ذلك إلى حقيقة أن هذا الإقليم كان معزولاً إلى حد ما عن بقية أقاليم الأندلس.[٢] ولا شك أن هذه العزلة تجعل المجتمع الغرناطي العربي أقل احتكاكاً بالناطقين باللغات الأخرى في عموم الأندلس. وهذا من منظور لغوي اجتماعي يجعل اللغة أقل تأثراً، وكأن غالبية الناطقين في هذا الإقليم من العرب الذين شكلوا تكتلات اجتماعية معزولة يحافظون فيها على ثقافتهم ولغتهم. في المقابل فلا شك أن اللهجات العربية في بقية أقاليم الأندلس أكثر تأثراً

(1) Corriente, "A grammatical sketch of the Spanish Arabic dialect bundle". (Madrid: Instituto Hispano-Arabe de Cultura 1977), 6.
(2) Corriente, "On some features of late Granadian Arabic (mostlystress)", 56.

بالعنصر الأعجمي. والعنصر الأعجمي في الأندلس يتشكل من مجموعتين: الأولى تعود للعجم المسلمين الذين انضموا إلى العرب الفاتحين ودخلوا تحت إمرتهم في الجيش، وأعداد هؤلاء العجم كانت تفوق أعداد العرب. هؤلاء العجم الذين انضموا إلى الفاتحين العرب إما من عجم المشرق كالفرس والترك، وإما من عجم المغرب وهم الأمازيغ الذين يُعتقَد أنهم كانوا أكثرَ من الأعراق الأعجمية الأخرى، بل ربما فاق عددهم عدد العرب الفاتحين.(١)

مجموعة اللهجات العربية في الأندلس المعروفة عند المشتغلين بدراسة التنوعات اللغوية بالعربية الأندلسية تُعد اليوم ضمن اللغات أو اللهجات الميتة. وقد تطورت هذه اللهجة نتيجة لاتصال العربية بعدة لغات رومانسية محكية في شبه الجزيرة الأيبيرية. وبحلول القرن العاشر غدت العربية الأندلسية لغةً خليطاً مشكلةً من عدة لهجات عربية إضافة إلى بعض العناصر الأعجمية. وآخر ما تبقى من هذه اللهجة تلك التي كانت محكية في بلنسية التي شهدت إخراج آخر مجموعة من العرب والمسلمين من الأندلس.(٢) وقد كانت هناك لهجة عليا وهي التي تمثلها لهجة غرناطة بالإضافة إلى لهجات تُستعمل في الاتصال اليومي بين الناس في الأسواق وغيرها من أمور الحياة. هناك قلةٌ من الوثائق المكتوبة توثق هذا المستوى اللغوي المستعمل في الحياة اليومية، حيث إن أغلب الوثائق الأندلسية المكتوبة تنتمي في مستواها اللغوي إلى عربية فصيحة يُطلِق عليها بعض الدراسين خاصة المستعربين عربية القرون الوسطى. وهي عربية في منزلة وسطى بين الكلاسيكية وفوق المنطوقة في ذلك الزمن.

(1)Fierro, Sükrü-Hanioglu, Versteegh. "A Descriptive and Comparative Grammar of Andalusi Arabic". (Leiden: Brill. 2013), IX.

(2) Barceló, Carmen & Ana Labarta (eds.) "Archivos moriscos: Textos árabes de la minoría islámica valenciana". (Valencia: Universidad de Valencia, 2009), 117.

وأقدم وثيقة للعربية الأندلسية تعود لعام ٩١٣ م. وهي عبارة عن مقطوعة من شعر الزجل. ولا شك أن هذا المشهد اللغوي يعيد الأذهان إلى المشهد اللغوي في المشرق حيث اشتغل اللغويون بتدوين مستوى لغوي معين أما المستويات اللغوية الأخرى فليس هناك وثائق مكتوبة توثقها.(١)

وتشير المصادر إلى أن العربية الأندلسية تميزت بعدد من الخصائص التي لم توجد في التنوعات العربية في المشرق على اختلاف مستوياتها. فعلى المستوى الصوتي فإن الأندلسية تطول فيها حركة ما قبل الآخر حتى يتولد عن تلك الحركة حرف مد (صائت طويل). وسأضرب على ذلك مثالاً ببعض الكلمات: أَسْقُف تصبح أسْقوف، قُنْفُذ تصبح قُنفوذ والأندلس تصبح الأندلوس وهكذا. وهذا التغيّر الصوتي نتيجة التأثر باللغات الرومانسية التي تحتوي على هذه الظاهرة وقد أخذتها اللغات الرومانسية من اليونانية.(٢) أما الخصائص الصرفية فنجد على سبيل المثال إضافة بعض اللواحق الصرفية التي تعود إلى اللغات الرومانسية ومنها اللاحقة التي تدل على المبالغة أو الزيادة في الكم أو الحجم مثل (ون) فعل سبيل المثال فإن هذه اللاحقة تدخل على كلمة: جَرّة لتدل على الجرة الكبيرة > جَرّون، وكذلك كلمة راقد التي تدل على النعسان تصبح راقدون للدلالة على النعسان بشدة. ومن الظواهر النحوية في العربية الأندلسية تغيير جنس المؤنث والمذكر المجازي تبعاً لتأنيث وتذكير هذه الكلمات في اللغات الرومانسية، مثل كلمة عين، شمس ونار وهذه كلها تُعامل معاملة المؤنث المجازي في العربية، لكنها في عربية الأندلس تُعامل معاملة المذكر كما في اللغات الرومانسية. وفي المقابل فإن كلمتي ماء ودواء تعاملان معاملة المذكر في العربية

(1) Lucas, & Manfredi (eds.). "Arabic and contact-induced change" (Contact and Multilingualism 1). (Berlin: Language Science Press, 2020), 232.
(2) Lucas, & Manfredi (eds.). "Arabic and contact-induced change" (Contact and Multilingualism 1). (Berlin: Language Science Press, 2020), 232.

إلا أنهما في عربية الأندلس تُعاملان معاملة المؤنث.[١]

وتفصيل خصائص هذه العربية المنقرضة خارج عن إطار هذا البحث وحدوده، ولكني في هذا السياق أشرت إلى عدد قليل من خصائص هذه اللغة التي ماتت بهجرة الناطقين بها من أرضها لكي أبين للقارئ الكريم شيئاً من المشهد اللغوي الذي حصل فيه اتصال بين العربية وغيرها من اللغات الأخرى.

(1) Lucas, & Manfredi (eds.). "Arabic and contact-induced change" (Contact and Multilingualism 1), 232.

التباين بين اتصال العربية باللغات الشرقية واللغات الغربية

إن التباين في الاتصال بين العربية وغيرها من اللغات يمكن توضيحه على النحو التالي: فاللغات الشرقية التي اتصلت بها العربية – وقد أشرت فيما تقدم إلى لغتين أساسيتين: الفارسية والتركية – كان لاتصال العربية بهما طابع خاص ومميز. ويمكن أن أوضح ذلك من جوانب عدة: بعضها لغوي والبعض الآخر فوق لغوي. أولاً، العامل اللغوي يكمن في أن تلك اللغات حينما اتصلت بالعربية كانت حديثة عهد بالتدوين المعجمي. وقد أشرت فيما تقدم إلى أن مسألة تدوين كلمات هاتين اللغتين نهضت متأثرة بتدوين اللغة في العربية. ثم ثانياً، كان التأثر في نهج بناء المعاجم في اللغتين. وحري بالقارئ أن يتذكر أن هذا التأثر إنما كان في بداياته من جهة العجم الذين حازوا قصب السبق في الدرس اللغوي العربي، ويمكن أن نضرب المثال بالجوهري التركي. فهؤلاء العلماء بعد أن قدموا أعمالاً لها وزنها في المعجمية العربية ألف بعضهم بلغاتهم الأم متأثرين بنهجهم في التأليف العربي. وفي أحيانٍ أخرى يتأثر بأعمالهم العربية بعضُ من ألفوا في اللغات الأعجمية. والتأثر وإن كان في ظاهره يبدو متعلقا بمسألة تنظيم المعجم على وجه التحديد إلا أن هذه القضية يمكن القول بأنها تجر غيرها معها. وذلك أن ترتيب المعجم ليس في مجرد صف الكلمات وإنما يتطلب تصوراً أكبر من قضية مواضع الكلمات في المعجم. حيث تتداخل المسائل الصرفية والنحوية وتتزاحم داخل نهج ترتيب الكلمات. مما يجعل هذا النهج محمَّلاً بثقافة اللغة التي نشأ فيها، وهذا ما نجده في معاجم اللغات الشرقية التي تأثرت في ترتيبها باللغة العربية.

أما العوامل الفوق لغوية فهي كالتالي: أولاً الجغرافيا فهذا القرب أو لنقل التجاور بين العربية وما حولها من اللغات أدى إلى زيادة الاتصال بينها وبين العربية، ومن أهم عوامل ذلك في العصور الكلاسيكية التجارة. ثم إن هذا القرب الجغرافي أدى إلى العامل الفوق لغوي الثاني وهو الدخول في الإسلام لكل من الناطقين بالفارسية، وبعدهم من

الناحية التاريخية أسلم خلق كثير من الناطقين بالتركية. وقد أشرت فيما تقدم إلى دور الإسلام الكبير الذي حمل معه اللغة العربية فكان العصب الذي قدم العربية للعجم. ثم إن هذا العامل الفوق لغوي الثاني قاد إلى العامل الثالث وهو الاختلاط الكبير في التركيبة الديموغرافية سواء في بلاد العرب أم في بلاد العجم. فلا يخفى على القارئ أن فئاماً من العجم انتقلوا للعيش في المدن العربية الكبيرة وخاصة المقدسة، والعكس صحيح فكثير من العرب نزلوا مدن العجم واتخذوها أوطاناً فتزوجوا وتكاثروا فيها. ولذا فقد أشار الجاحظ إلى أن أهل الأمصار يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك تجد الاختلاف في الألفاظ بين أهل الكوفة، والبصرة، والشام، ومصر. وذكر على ذلك شواهد وقصصاً لحوارات بين الناطقين بالعربية في تلك المدن. وسأكتفي بالإشارة إلى شاهد ذلك من لغة أهل المدينة ويقول في ذلك الجاحظ:

> ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ الخربز، ويسمون السميط الرزدق ويسمون المصوص المزور، ويسمون الشطرنج الاشترنج.(١)

ويمكن لنا أيضاً أن نعمق الطرح فيما يتعلق بالعوامل الفوق لغوية لاتصال العربية بالفارسية والتركية وذلك من جهة الأوضاع السياسية. حيث إن بواكير القرن الرابع الهجري شهدت عصر سيطرة العنصر الفارسي وذلك بظهور بني بويه الذين بسطوا هيمنتهم على العراق، وشاركوا بشكل واضح في مقاليد الحكم. وقد تعاظم نفوذهم حتى سُميت تلك الدولة باسمهم وشكل اسمهم عصراً مستقلاً من العصور التي

(١) الجاحظ، "البيان والتبيين". تحقيق موفق شهاب الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩)، ١:٢٠.

عاش الناس فيها تحت ظل الخلافة العباسية. ولا شك أن مثل هذه الظروف السياسية ترفع من مستوى الاتصال بين العربية وهي لغة الدولة آنذاك والفارسية وهي لغة الفئة المهيمنة على الحكم. ثم ما لبث الأمر حتى قامت دولة الترك السلجوقية مطلع القرن الخامس م. وقد تبع قيام هذه الدولة اتصال في عدة مناطق بين العربية والتركية كان له أثر واضح في كل من اللغتين. (١)

في المقابل فإن اتصال العربية باللغات الغربية اختلف من جوانب عدة عن اتصالها باللغات الشرقية المذكورة أعلاه. ويمكن الوقوف على ذلك من خلال تتبع انتقال الناطقين بالعربية منذ لحظة خروجهم من جزيرة العرب إلى مصر حتى وصلوا إلى الأندلس. وقد استغرق التحول من اللغات في تلك المناطق إلى العربية عدة قرون. وإذا نظرنا إلى المشهد اللغوي على امتداد ساحل الشمال الإفريقي نجد أنه قد خلص إلى التحول إلى العربية بشكل عام منذ دخول العرب في تلك المناطق وحتى يومنا هذا. ولا يغيب عن القارئ وجود بعض الجيوب ذات الهوية الخاصة التي حافظت على لغتها إلى يومنا هذا مثل الأمازيغية، إلا أن اللغة الرسمية الغالبة هي العربية. كما لا يخفى على القارئ بعض العصور التي تصارعت فيها الفرنسية مع العربية في بعض دول شمال إفريقيا إبان الاحتلال الفرنسي. إضافة إلى مزاحمة الفرنسية للعربية في الشمال الإفريقي إلى اليوم، ومناقشة مثل هذه المسائل خارجة عن إطار هذا البحث.

ومن أبرز الجوانب اللغوية التي تميز بها اتصال العربية باللغات الرومانسية في الأندلس أن ذلك الاتصال لم يتسلل بشكل واضح إلى علوم اللغة كترتيب المعاجم. والسبب الأساس في ذلك أن اللغات الرومانسية حظيت بمنهجية واضحة في تدوين ودراسة أصلها المتمثل في اللاتينية. فكل اللهجات المنشعبة عنها ارتسمت نهج المعرفة اللغوية اللاتينية وطبقته بحذافيره، فلم تكن هناك حاجة لمناهج جديدة في الدرس

(١) طقوش، "تاريخ الدولة العباسية". (بيروت: دار النفائس، ١٤٣٠)، ٢٢٠، ٢٣٧.

اللغوي الرومانسي، إذ تم الاكتفاء بالدرس اللاتيني. وهذا ما قام به الملك ألفونسو حينما اخترع نظاماً لكتابة اللغة القشتالية يضاهي نظام الكتابة اللاتيني.[١] الأمر الآخر وهو فوق لغوي ويكمن في الحملة التي أدت إلى إخراج الناطقين بالعربية من شبه الجزيرة الإيبيرية وكان لها أكبر الأثر في اندثار العربية في تلك الأقاليم إذ حلت محلها اللغات الرومانسية، ثم تغلبت عليهم القشتالية وهي إسبانية اليوم.

(1)Wright, "Late Latin and Early Romance in Spain and Carolingian France" (ARCA Classical and Medieval Tex.ls. Papers and Monographs). (Liverpool: Francis Cairns, 1982), 14.

الخاتمة:

في الختام وبعد هذا التطواف التاريخي المصحوب بشيء من التوثيق والتحليل والربط يتضح أن الاتصال والتفاعل بين العربية واللغات الأخرى امتد على رقعة جغرافية واسعة، عبر قرون متعاقبة. وهناك الكثير من العوامل اللغوية والفوق لغوية أسهمت في تسريع عملية الاتصال وإنضاجها حتى وصلت عملية الاتصال في أقصى صورها المتمثلة في إزاحة العربية لكثير من اللغات، ومن أهم العوامل التي أدت لذلك ارتباطها بالإسلام.

ثم إن ظروف اتصال العربية بغيرها تختلف من لغة إلى أخرى فاتصال العربية باللغات المدونة القديمة كالرومانسية يختلف عن اتصالها باللغات التي كانت لم تزل محكية ولم تُدوَّن كالفارسية والتركية. وهنا تجدر الإشارة إلى أمرين في غاية الأهمية حول خصوصية تأثر اللغات الرومانسية بالعربية في نواحٍ عدة: الأول، أن اللغات الرومانسية ومنها القشتالية التي هي إسبانية اليوم اتصلت بالعربية أثناء فترة تحولها من إحدى لهجات اللاتينية إلى لغة مستقلة، حيث كانت في طور مَعْيرتها كلغة من عدة جوانب في مقدمتها الألفاظ. الثاني، أن تدوين اللغات الأوروبية أخذ طابعاً توصيفياً وليس تشريعياً. وذلك أن جُماع اللغة والمهتمين بها حينما دونوا لغاتهم في بواكير فترة انشعابها عن اللاتينية الأم إنما دونوا لغة الجمهور الذين تسربت إلى ألسنتهم الكثير من الألفاظ العربية. وهذا ما جعل تلك الألفاظ تستقر في معاجم اللغات الرومانسية الحديثة.

أما على مستوى المخرجات اللغوية الناتجة عن اتصال العربية بغيرها فهي كثيرة ومتنوعة. فهناك في القارة الأوروبية اليوم اللغة المالطية التي تُعد ضمن مخرجات الاتصال بين العربية واللغات الرومانسية. وهذه اللغة هي اللغة الرسمية في مالطا اليوم، وقد تمت معيرتها ولها نظامُ كتابةٍ مستقلٍ يعتمد على الحروف اللاتينية وليس العربية. وفي إفريقيا هناك العربية النيجيرية التي توشك أن تصبح لغةً مستقلةً

عن العربية لتأخذ حالة اللغة المالطية. إلا أن ذلك لم يحدث بعد حيث تظلُّ العربيةُ النيجيرية لغةً منطوقةً في أقاليمَ معينةٍ في إفريقيا. ومثلها كذلك عربية بحيرة تشاد، والرطانة الموجودة في جنوب السودان التي نشأت نتيجة اتصال الجيش المصري الناطق بالعربية بالسكان الأفارقة في أقصى جنوب السودان الناطقين باللغات الكوشية. وكل هذه ضمن مخرجات الاتصال الحية. في المقابل فإن العربية الأندلسية ضمن الأشكال اللغوية الميتة وكذلك مثلها العربية الأوزبكية التي هي الأخرى لم تُدون، ولم يعد هناك من يتحدث بها اليوم.

أخيراً، قدمت هذه الورقة تتبعاً تاريخياً لاتصال العربية بغيرها من اللغات ويبدو أن اتصال العربية باللغات الأخرى تداخلت فيه عوامل متعددة. وقد نتج عن عملية الاتصال تطور لغوي ظهر جلياً في اللغات التي اتصلت بها العربية ولم يقف الأمر عند حد التطور اللغوي فحسب، بل تعداه إلى ظهور أشكال لغوية جديدة. إن طرافة البحث في اللسانيات الاجتماعية العربية تجعل الفرصة مشرعة أمام الباحثين العرب ليتعمقوا في فهم اتصال لغتهم باللغات الأخرى في الماضي والحاضر، الأمر الذي يرسم خارطة التوصيف الدقيق للعربية للإسهام في معالجة كثير من قضايا لغتنا الجميلة.

المصادر العربية

ابن حبيب، أبو جعفر محمد. المحبر. "رواية أبي سعيد بن حسين السكري". دائرة المعارف العثمانية. (بيروت: المكتب التجاري ١٩٤٢).

الحازمي، محمد ظافر. "الرطانة كنتيجة للاتصال بين اللغات". ٣٠٤ – ٣٤١، العدد ١٨. *مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية*، السنة السابعة. (١٤٤٠)

الجاحظ، عمرو بن بحر. "البيان والتبيين". تحقيق موفق شهاب الدين. (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩)

طقوش، محمد سهيل. "تاريخ الدولة العباسية". (بيروت: دار النفائس ١٤٣٠).

العجمي، فالح شبيب. "أبعاد العربية، دراسة في فقه اللغة العربية وتاريخ تطورها وعلاقتها ببقية اللغات السامية". (الرياض، مطابع الناشر العربي ١٤١٥).

نصار، حسين. "المعجم العربي نشأته وتطوره". (القاهرة: مكتبة مصر. ١٤٠٨).

Bibliography

Ibn Ḥabīb, Abū Jaʿfar Muḥammad al-Muḥabbar. "Riwāyat Abī Saʿīd Ibn Ḥusain al-Sukkarī". Dāʾirat al-Maʿārif al-ʿUthmānīyyah. (Beirut: al-Maktab al-Tijārī 1942).

Al-Ḥāzimī, Muḥammad Ẓāfir. "Jargon as a result of interlingual contact" (in Arabic). 304 – 341, issue 18. Taibah University Journal of Arts and Human Sciences, seventh year. (1440 AH).

Al-Jāḥiẓ, ʿAmr ibn Baḥr. "al-Bayān wa-al-Tabyīn". Investigated by: Muwaffaq Shihāb al-Dīn. (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿilmīyah, 1419 AH).

Ṭaqqūsh, Muḥammad Suhail. "Tārīkh al-Dawlah al-ʿAbbāsīyah". (Beirut: Dār al-Nafāʾis 1430 AH).

Al-ʿAjamī, Fāliḥ Shabīb. "Abʿād al-ʿArabīyah, dirāsah fī fiqh al-lughah al-ʿArabīyah wa-tārīkh taṭawwurihā wa-ʿalāqatihā be-baqīyyat al-lughāt al-Sāmīyah". (Riyadh: Al-Nashr Al-Arabi Press, 1415).

Naṣṣār, Ḥusain. "al-Muʿjam al-ʿArabī nashʾatuhu wa-taṭawwuruh". (Cairo: Maktabat Miṣr. 1408 AH).

Foreign References: المصادر الأجنبية:

Agius, Dionisius A. "The Shu<]biyya Movement and its Literary Manifestation", Islamic Quarterly, 3 (IV): 76-88, (1980)

Agius, Dionisius. "Classical Ships of Islam, from Mesopotamia to the Indian Ocean". (London: Brill, 2007)

Barceló, Carmen & Ana Labarta (eds.) "Archivos moriscos: Textos árabes de la minoría islámica valenciana", 1401–1608. Valencia: Universidad de Valencia. (2009)

Bramon, Dolors. "Catalonia's Islamic Past: history, Language and Culture", Quaderns de la Mediterrània 30-31, 2020: 161-170. (2020).

Browne. E. G. "A Literary History of Persia", Vol. 2. (London: Unwin,1906).

Chalmeta p., "Invasión e islamización. La sumisión de Hispania y la formación de al-Andalus", (Madrid, Mapfre, 1994).

Corriente, Federico. "A grammatical sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle". (Madrid: Instituto Hispano-Arabe de Cultura 1977).

Corriente, Federico. a. "On some features of late Granadian Arabic

(mostlystress)" . In Jordi Aguadé, Patrice Cressier & Ángeles Vicente (eds.), Peuplement et arabisation au Maghreb occidental: Dialectologie et histoire, 53–57. Madrid, Zaragoza: Casa de Velázquez, Universidad de Zaragoza. (1998).

Crystal, David. "English as a Global Language". (Cambridge: University of Cambridge Press, 2003)

Fahmy, Aly Mohamed. "Muslim Sea-Power in the eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century". (Cairo: National Publication, 1966)

F. Rundgren "La Lexicographie arabe" in Studies in Semitic Lexicography, ed. P. Fronzaroli, (Firenze, 1973).

Guichard, Pieere. "Al-Andalus". (Paris: Hachette Littératures, 2000).

Haywood, J. "Arabic Lexicography, its History and its Place in the General History of Lexicography". (second edition, Leiden: E. J. Brill; 1965).

Holm, John. An Introduction to Pidgins and Creoles. (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

Lorenzo-Lacruz, J.; Vicente-Serrano, S. M.; López-Moreno, J.I.; González-Hidalgo, J.C.; Morán-Tejeda, E. "The response of Iberian rivers to the North Atlantic Oscillation". Hydrology and Earth System Sciences. 15 (8): 2581–2597. (2011).

Lev, Yaacov. "Saladin in Egypt". (Leiden: E. J. Brill, 1999).

Lewis, Geofferey. "The Turkish Language Reform A Catastrophic Success". (Oxford: Oxford University Press 1999).

Lucas, Christopher & Stefano Manfredi (eds.). "Arabic and contact-induced change" (Contact and Multilingualism 1). (Berlin: Language Science Press, 2020)

Maribel Fierro, M. Sükrü-Hanioglu, Kees Versteegh.. "A Descriptive and Comparative Grammar of Andalusi Arabic". (Leiden: Brill, 2013)

Penny, Ralph. "A History of Spanish Language". (Cambridge: Cambridge University Press 2002).

Toosi, Asadi. "Lughat-e Fors". Ed. Mohammad Dbair Syaqi. (Tehran, 1957).

A. C. Woolner, Alfred. "Language in the History and Politics". (London: Oxford University Press, 1938).

Wright, Roger. "Late Latin and Early Romance in Spain and Carolingian France" (ARCA Classical and Medieval Tex.ls. Papers and Monographs). (Liverpool: Francis Cairns 1982).